بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[سورة هود(٤٤)].

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر، {وَغِيضَ الْمَاءُ} أي: شرع في النقص، {وَقُضِيَ الأَمْرُ} أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديّار، {وَاسْتَوَتْ}: واستوت السفينة بمن فيها، {عَلَى الْجُودِيِّ}، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله -عز وجل- فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح -عليه السلام-.

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها.

قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح -عليه السلام- على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً.

وقوله: {وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ}** بدأ بالأرض؛ لأن الماء والنبع بدأ منها، كما قال الله -عز وجل-: **{فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ}** [سورة المؤمنون(٢٧)]، فكان ابتداء الطوفان من الأرض، ربما يقال هذا -والله أعلم-، والتعبير بالبلع يدل على أنه لم يكن تنشيف الأرض بالطريقة المعهودة التي يحصل بها ذهاب الماء بالتبخر، وما يغيض في الأرض منها، وإنما كان ذلك سريعاً، بطريقة غير معهودة، **{ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي}** تقول: أقلع المطر إذا أمسك، يعني: أمسكي عن المطر، **{وَغِيضَ الْمَاءُ}** قال: "**شرع في النقص**"، **{وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}**، يقول مجاهد عن الجودي: "**إنه جبل في الجزيرة**"، والمقصود بالجزيرة التي بين الشام والعراق، وليست جزيرة العرب، ويقول: "**تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت، وتواضع هو لله –عزوجل- فلم يغرق**"، وهذا الكلام ليس عليه دليل، والله -عز وجل- ذكر هذا بعد قوله: **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}** فبعد أن غيض الماء، وأوقفت السماء إمطارها، والأرض بلعت ماءها استوت على الجودي، فهذا ليس فيه ما يدل على أنه لم يغرق، وقول قتادة بأنها استوت عليه شهراً حتى نزلوا، لا دليل عليه، وإنما هو مأخوذ عن بني إسرائيل، والروايات عنهم في هذا كثيرة، بعضهم يوصل ذلك إلى سنة، في تفاصيل لا دليل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليها، ويقول: "**وقد أبقى الله سفينة نوح -عليه السلام- على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة**". وهذا لا دليل عليه، ولا يعرف عن أحد برواية ثابتة من أوائل هذه الأمة أنه رآها، وإذا كان الله أبقاها هذه القرون المتطاولة جداً فأين تذهب من أوائل هذه الأمة إلى عهد قتادة؟ لو صح عن قتادة -رحمه الله-، فقتادة من التابعين يقول: "**وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً**". ويوجد من يُعنَى بالآثار ويُعرض عن البحث عن الحقائق عن هذه السفينة، وينقبون ويبحثون عن جبل الجودي أين هو، وهل يوجد بقايا من هذه السفينة أو لا؟ والعبرة العظيمة من إغراق أهل الأرض من أجل الكفر بالله -عز وجل-، هذا تجدهم بمنأى عنه، فالله -عز وجل- أخبرنا أنها استوت على الجودي، بعضهم يقول: هو جبل معيّن، وبعضهم يقول: هو كل جبل، يعني أن كل جبل يقال له: الجودي، فليس ذلك يختص بجبل معيّن اسمه الجودي، كل جبل يقال له: الجودي، وأما قضية السفينة وبقايا السفينة فهذا لا فائدة فيه، ولا يدل على أنها بقيت نفس السفينة أو بقاياها، أخذاً من قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[سورة القمر(١٥)]، أي: القصة والعبرة جعلها الله -عز وجل- آية، وهذه السفن التي نشاهدها تذكّر بهذا الأمر الذي امتن الله به على عباده المؤمنين حيث حملهم على الفلك، فالشاهد أنه ليس فيه ما يدل على أنها بقيت، وقوله: {وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، يحتمل أن يكون هذا من كلام الله -عز وجل-، ويحتمل أن يكون من كلام نوح، فالله تعالى أعلم، لكن هذه الآية من الآيات التي جمعت صنوف البلاغة، هذه آية بالغة في الفصاحة والبلاغة مبلغاً عظيماً؛ ولذلك فإن العلماء الذين يُعنَون بالإعجاز القرآني البلاغي اللغوي يطيلون في الحديث عن هذه الآية.

{وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ} [سورة هود(٤٥-٤٧)].

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح -عليه السلام- عن حال ولده الذي غرق، {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعْدك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: {وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ} [سورة المؤمنون(٢٧)]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً -عليه السلام-، وقوله: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} أي: الذين وعدتك نجاتهم.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية.

قال عكرمة في بعض الحروف: إنه عَمِل عملاً غير صالح.

نادى نوح -صلى الله عليه وسلم- ربه، دعاه {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} أخذاً من العموم في قوله: {وَأَهْلَكَ}، و"أهل" أضيف إلى المعرفة -كاف الخطاب- فأكسبه العموم، فنوح -عليه الصلاة والسلام- احتج بهذا، فبيّن الله -عز وجل- له أن هذه اللفظة لا تدل على العموم، فقال: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، أي: ليس من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهلك الموعود بنجاتهم؛ وذلك أنه لم يكن على دينه، وليس معنى ذلك قطعاً أنه ليس ولداً له، وأنه كان مولوداً على فراشه، وأن امرأته خانته، فالله -عز وجل- لا يختار للأنبياء امرأة تخون، فالمرأة امرأة النبي ولو كانت كافرة إلا أن الله يحفظ العرض؛ لأن ذلك يدنس شرف الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ولا يمكن أن يقع إطلاقاً، ولا يجوز لأحد أن يورد في التفسير قولاً يشتمل على مثل هذه القبائح، وللأسف يوجد في بعض كتب التفسير من يورد مثل هذا، ولو كان يذكره من جملة الأقوال ولا يعتمده، لكن إيراده بمجرده رزية وخطأ، ولا يليق بحال، ومثل هذا يعرض عنه، قال: {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، عمل هذا الولد غير صالح، يمكن أن يكون هذا على سبيل المبالغة، كأنه جعله نفس العمل مبالغةً في ذمه، -والله أعلم-، هذا على قراءة الجمهور، وابن جرير يفسر هذه القراءة -قراءة الجمهور- {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}: أن ذلك لا يرجع إلى الولد، وإنما يرجع إلى السؤال، سؤال نوح قال: {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}، فالله قال له: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}: يعني هذا السؤال، {فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، هذا اختيار ابن جرير: أن سؤالك في غير محله، {فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، وربما يحتج لهذا بأنه عقبه بالفاء {فَلا تَسْأَلْنِي}؛ لأنها لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والأول أشهر، وعليه عامة أهل العلم، وهو الأقرب، {إِنَّهُ عَمَلٌ} أي: الولد، {غَيْرُ صَالِحٍ}، وعلى قراءة الكسائي وهي متواترة: {إِنَّهُ عَمِلَ}: يعني الولد، أي أنه كفر بالله -عز وجل- فعمله سيئ وشر لا يحبه الله جل جلاله.

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}[سورة هود(٤٨)].

يخبر تعالى عما قيل لنوح -عليه السلام- حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

قوله -تبارك وتعالى-: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ}، قاله الله -عز وجل-، والفعل وإن بني للذي لم يسم فاعله إلا أن هذا القول يدل على قائله: {اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}[سورة هود(٤٨)]، {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}، بعض أهل العلم يقول: أي ناشئة ممن معك، أمم توجد وتولد وتتفرع ممن معك، وأمم ممن معك تنشأ؛ لأن ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- هم الباقون كما أخبر الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء الأمم الناشئة هم المتشعبون من ذريته -عليه الصلاة والسلام-، الذين كانوا معه، وبعض أهل العلم يقول: {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}: الذين كانوا مع نوح -عليه الصلاة والسلام- أمم، فبنو آدم أمة، والطير أمة، وهكذا، وكل نوع من الطيور أمة، أو كل جنس من الوحش، أو غيره؛ ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}[سورة الأنعام(٣٨)]، فكلها أمم، ويمكن أن يكون {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} يعني: هذه الطيور والحيوانات وألوان الدواب، إضافة إلى الآدميين، وبعض أهل العلم يقول: {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} يعني: من كان مؤمناً من ذريتهم، {مِمَّنْ مَعَكَ}، فتكون (من) تبعيضية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض، فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغوط الأكبر، وأبواب السماء، يقول الله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه.

وفي أول يوم من الشهر العاشر رُئي رءوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، لم تجد لرجليها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له، فرجعت حين أمست وفي فِيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قلَّ عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد برزت، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه قيل: {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا} الآية.

هذه من الروايات الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب، وليس وراء العلم بها فائدة، وكان الأولى أنها لا تذكر في مثل هذا المختصر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (8)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [(49) سورة هود].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه القصة وأشباهها {مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ} يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها، {نُوحِيهَا إِلَيْكَ} أي: نُعْلمك بها وحياً منا إليك، {مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا} أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم، {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [(51) سورة غافر] الآية، وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ} [(171- 172) سورة الصافات] الآية، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}.

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [(50-52) سورة هود].

يقول تعالى: لقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره، {أَفَلا تَعْقِلُونَ} من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها خبر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم قد مضى كثير منها في سورة الأعراف، ومضى بعض مضامينها في غيرها، كما مر في قول نوح -صلى الله عليه وسلم-: **{وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً}** [(29) سورة هود]، وهنا ذكر الأجر **{إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ}** [(51) سورة هود]، وهكذا، فما يتعلق بالاستغفار والتوبة وتعقيب التوبة بعد الاستغفار بـــ "ثم"، وما يترتب على ذلك، قد مضى الكلام عليه.

{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. [سورة هود(53-56)].

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} أي: بمجرد قولك اتركوهم نتركهم، {وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} بمصدقين، {إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}، يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ}، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، {فَكِيدُونِي جَمِيعاً} أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً، {ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ} أي: طرفة عين، وقوله: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة اللهُ وحده لا شريك له، الذي بيده الملك وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

قول الكفار لنبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ}، لا يدل على أنه -عليه الصلاة والسلام- لم يأتهم ببينة، فإن هؤلاء يكابرون غاية المكابرة، ومن أهل العلم من فهم من هذا أن هوداً -صلى الله عليه وسلم- كانت معجزته هي أنه تحداهم وقال لهم: {إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ}، والواقع أن الله -تبارك وتعالى- أعطى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من الآيات والبينات ما آمن على مثله البشر، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن لم تذكر هذه الآية أو البينة في خبره وقصته التي قصها الله -عز وجل- علينا، وإن زعم قومه أنه لم يأتهم ببينة فلا عبرة بقولهم؛ لأنهم أهل مكابرة، وما ذكر أن آية هود -صلى الله عليه وسلم- هي التحدي ليس بصحيح، ويمكن أن يكون هذا من جملة دلائل نبوته -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن آيات الأنبياء على نوعين:

النوع الأول: المعجز: كالقرآن وانشقاق القمر، وناقة صالح -عليه الصلاة والسلام- والآيات التسع التي أعطاها الله -عز وجل- لموسى -صلى الله عليه وسلم-.

النوع الثاني: ليس بمعجز مما يعرف به صدقه، مثل الأشياء التي سأل عنها هرقل أبا سفيان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}، أي: تحت قهره وسلطانه، {آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} باعتبار أن الأخذ بالناصية يدل على القهر.

ومن أهل العلم من قال: {آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} أي: أنه مالكها، فالملك كله بيده -تبارك وتعالى- {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}، فهم عبيده وتحت ملكه وقهره وسلطانه.

قوله: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: الحاكم العدل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم في تصرفه وقضائه وقدره وتدبيره وعطائه ومنعه، وأمره ونهيه، وعقابه وثوابه وجزائه، وشرعه وأسمائه وصفاته، وكل ما يتعلق به -سبحانه وتعالى- فإن ذلك جميعاً يجري على أكمل الوجوه، وهو مطابق لكمال ذاته وصفاته جل جلاله، ولا يوجد شيء من هذا يخرج عن هذا المعنى، لكونه على صراط مستقيم، وهذا هو المعنى الصحيح في هذه الآية، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-.

وقال بعض أهل العلم في قوله: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: أن جميع الخلق يرجعون إليه، وأن مصيرهم إليه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فطريقهم إليه، لا يفوتونه كما قال الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [(14) سورة الفجر].

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}. [(57-60) سورة هود].

يقول لهم هود -عليه السلام-: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ} يعبدونه وحده لا يشركون به، ولا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، {إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} وهو الريح العقيم، فأهلكم الله عن آخرهم، ونجى هوداً -عليه السلام- وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه، {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} كفروا بها وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود فنزّل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل، {وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد؛ فلهذا أتبعوا في الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد {أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ} الآية.

قوله: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [(59) سورة هود] الآيات المذكورة في هذه الآية هي التي جاءهم بها هود -عليه الصلاة والسلام- وقد قالوا له: {مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [(53) سورة هود].

وقوله: {وَعَصَوْا رُسُلَهُ}، أي: عصوا هوداً -عليه السلام- ومعلوم أن من عصى رسولاً فقد عصى جميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومثل هذه الآية قول الله -تبارك وتعالى-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [(105) سورة الشعراء] ومعلوم أنه لم يسبق إلى أهل الأرض رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام- فالذين كذبوا نوحاً -صلى الله عليه وسلم- فقد كذبوا بجميع الأنبياء.

قوله: {أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}، أي: بعداً لهم وهلاكاً.

قوله: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ } [(61) سورة هود].

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى ثمود، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم {أَخَاهُمْ صَالِحًا}، فأمرهم بعباده الله وحده؛ ولهذا قال: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ} أي: ابتدأ خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} أي: جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها، {فَاسْتَغْفِرُوهُ}؛ لسالف ذنوبكم، {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} فيما تستقبلونه، {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} كما قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [(186) سورة البقرة] الآية.

{قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} [(62-63) سورة هود].

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح -عليه السلام- وبين قومه، وما كان من الجهل والعناد في قولهم: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت، {أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}.

قوله: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا}، أي: كنا نرجو رأيك وعقلك وأن تكون فينا سيداً كبيراً عظيماً؛ لما نرى فيك من النجابة وحسن النظر ثم أتيتنا بهذه الدعوة، ويحتمل أنهم قالوا ذلك استهزاء بصالح –عليه السلام- وقال بعض أهل العلم في قوله: {قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا}: أي: مُبعَداً، من أرجاه، أي أخره، وهذا أضعف من القول الذي قبله، وقال بعضهم: معناه نرجو أن ترجع عما أنت فيه من عيب آلهتنا ومعبوداتنا، ثم بعد ذلك جئتنا تقول: إنك نبي، والمعنى الأول هو الأرجح، والله أعلم.

{أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} وما كان عليه أسلافنا، {وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} أي: شك كثير، {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}.

الريب: هو شك مع قلق، ويمكن أن يكون بمعنى شك مريب، أي: يكون سبباً للريب.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، {وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحدة فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني {غَيْرَ تَخْسِيرٍ} أي: خسارة.

قوله: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} أي: تخسير لي إن أطعتكم، فأخسر رضا الله -تبارك وتعالى- والدار الآخرة كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [(116) سورة الأنعام]، وقال ابن جرير –رحمه الله-: إن قوله: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} أي: حينما تدعوني إلى ما تدعوني إليه، وتذكرون ما تذكرون بمجادلتكم هذه ما تزيدونني غير تخسير في حقكم، فيظهر بذلك ضعف عقولكم، وسوء نظركم، وإدراككم، وما أنتم عليه من التعصب للباطل، واتباع الظن، والإعراض عن الحق مع وضوح دلائله، فليس لكم برهان فيما أنتم عليه، ولا تستحق مقالتكم أن تسمع.

قوله: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ}. [(64-67) سورة هود].

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفىً في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا، وبالله التوفيق.

قوله: **{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}** وجاء في سورة الأعراف **{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}** [(78) سورة الأعراف]، ولا منافاة بين الآيتين، فيمكن أن يكون قد صاح بهم الملَك صيحة انخلعت لها قلوبهم فرجفت بهم الأرض فهلكوا وماتوا، عن آخرهم.

قوله: **{فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}**، الجاثم: هو الساقط على وجهه على الأرض، أي: أنهم أصبحوا هلكى موتى قد سقطوا على وجوههم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (9)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}. [(69-73) سورة هود].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا} وهم الملائكة، {إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى} قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [(74) سورة هود].

{قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ} أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام، {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [(69) سورة هود] أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة وهو عجل: فتى البقر، {حَنِيذٍ}: مشوي على الرَّضْف وهي الحجارة المُحْماة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} [(26-27) سورة الذاريات].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [(69) سورة هود]، "أن" يحتمل أن تكون بمعنى "حتى" ويكون المعنى فما لبث حتى جاء بعجل حنيذ، وقال سيبويه: "أن" في محل نصب بنزع حرف الجر، ويكون التقدير: فما لبث عن أن جاء بعجل حنيذ، والمقصود أن إبراهيم –عليه السلام- أسرع في قِراهم وضيافتهم.

قال: "{حَنِيذٍ}: **مشوي على الرَّضْف وهي الحجارة المُحْماة**"، وهذا هو القول المشهور، وقال بعضهم: الحنيذ المشوي مطلقاً، وفسره بعضهم بالسمين.

وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

من آداب الضيافة المذكورة في هذه الآية: التحية والسلام، والإسراع في إكرام الضيف، ويدل على ذلك قوله: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ}، وقال –تبارك وتعالى-: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [(26) سورة الذاريات]، والروغان هو الذهاب بسرعة وخفية؛ من أجل أن لا يحرج الضيف، فلا يتثاقل أمامه ولا يتباطأ فيحرجه بهذا، ثم إنه جاءهم بعجل سمين كامل، ثم قربه إليهم، وهذا من كمال كرمه –صلى الله عليه وسلم- ثم تلطف مع الضيوف وعرض عليهم الأكل فقال: {أَلَا تَأْكُلُونَ} [(27) سورة الذاريات].

وفيه أن الإنسان لا يوقع نفسه مواقع الريب، فإذا بدا منه شيء يجعل الآخرين يتساءلون فإنه يبيّن لهم ذلك، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنها صفية))[1]، فإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- خاف من الأضياف، وقال لهم: {إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ} [(52) سورة الحجر] فبيّنوا له حالهم وقالوا له: {إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} [(70) سورة هود].

وفي هذه الآية أن الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون الغيب وغيرهم من باب أولى، فهذا إبراهيم الخليل –عليه الصلاة والسلام- ذبح عجله وتعب وأتعب أهله في إنضاجه، ثم جاء به لهؤلاء الأضياف وهو يظنهم من البشر، وكذلك لوط -عليه الصلاة والسلام- حينما جاءوا إليه قال لهم: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [(80) سورة هود]، فلم يعلم أنهم ملائكة، وقال لقومه: {يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} [(78) سورة هود] ولم يعلم أنهم ملائكة.

وقوله: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} تنكرهم، {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، وذلك أن الملائكة لا همَّة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة.

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم -عليه السلام- فتضيفوه، فلما رآهم أجلّهم، {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [(26) سورة الذاريات] فذبحه ثم شواه في الرَّضْف، وأتاهم به، فقعد معهم، فلما قربه إليهم قال: {أَلَا تَأْكُلُونَ} [(27) سورة الذاريات]، قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً.

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} [(70) سورة هود] يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت، وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: {قَالُوا لا تَخَفْ} أي: قالوا: لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

ضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم؛ لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، وهذا السبب غير السبب الأول الذي هو التعجب من عدم أكلهم للطعام، وقال بعض أهل العلم: ضحكت، أي: حاضت وعمرها قد جاوز التسعين، وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(72) سورة هود]، وفي آية أخرى: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات] فجمعت بين العقم وكبر السن، وهذا القول وإن كان معروفاً في كلام العرب إلا أنه ليس الظاهر المتبادر عند الإطلاق، ومن المعلوم أن ألفاظ القرآن ومعانيه تحمل على الظاهر

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (717/2)، برقم (1933)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (1712/4)، برقم (2175).

المتبادر، ولا يجوز حملها على معنىً آخر خفيٍّ أو قليل في الاستعمال إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولا يوجد دليل.

وقال بعضهم: إنها ضحكت فرحاً بالبشرى، وهذا القول يحتاج من قائله أن يقول: في الآية تقديم وتأخير، ويكون المعنى: وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت فرحاً، وهذا خلاف الأصل؛ لأن الأصل في الكلام الترتيب، وقال بعضهم: إنها ضحكت لما رأت ما به من الخوف، وهذا أبعد ما يكون ولا يليق بالمرأة أن تضحك من زوجها لمثل هذه الحال، بل ستكون أشد خوفاً منه، والذي يظهر -والله أعلم- أن ضَحِكها كان فرحاً واستبشاراً بهلاك قوم لوط.

وقوله: {وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(71) سورة هود] أي: من ولد لها يكون له ولد وعقبٌ ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(133) سورة البقرة]، ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعْد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعيّن أن يكون إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

يدعي اليهود أن الذبيح هو إسحاق -عليه السلام- وهذا قال به بعض أهل العلم من أهل السنة، وهو غير صحيح، والذي عليه عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم أن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- وهذه الآية تدل على هذا، فكيف يُبشَّر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم يؤمر بعد ذلك بذبحه وهو صغير، فأين الولد الذي سيكون من عقبه؟ وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أنا ابن الذبيحين))[2]، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو من نسل إسماعيل -عليه السلام- وقد جاء في كتب اليهود ما هو صريح في أن الذبيح هو إسماعيل -صلى الله عليه وسلم-.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا} [(72) سورة هود] الآية، حُكي قولها في هذه الآية كما حكي فعلها في الآية الأخرى، {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

تعجبت سارة فجمعت بين القول والفعل، فقالت: {عَجُوزٌ عَقِيمٌ} [(29) سورة الذاريات]، و{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(72) سورة هود]، وضربت وجهها بكفها.

والبعل هو الزوج، وقيل له ذلك لظهوره، وكونه هو قيّم المرأة وسيدها.

قوله: {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(73) سورة هود] أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير.

قال: {قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(73) سورة هود]، أي: من حكمه وقضائه، فإنه على كل شيء قدير.

---

[2] - رواه الحاكم في المستدرك (2 / 609)، برقم (4048)، وقال الألباني: لا أصل له، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (4 / 172).

قوله: {رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(73) سورة هود] أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: ((قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد))[3].

قوله: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}. [(74-76) سورة هود]

يخبر تعالى عن إبراهيم -عليه السلام- أنه لما ذهب عنه الروع -وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا، وبشروه بعد ذلك بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط- أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: إنا مهلكوا أهل هذه القرية، قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم -عليه السلام- عند ذلك: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ} [(32) سورة العنكبوت] الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

قوله –تبارك وتعالى-: **{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ}** [(74) سورة هود]، الرَّوع: بالفتح هو الخوف، وبالضم الرُوع: القلب.

وقوله: **{يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}** [(74) سورة هود] ظاهر الآيات أن المجادلة كانت في نفس قوم لوط، وفي دفع العذاب عنهم، أو تأجيل العذاب، ويدل على هذا -والله أعلم- قوله –تبارك وتعالى-: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}** [(75) سورة هود]، وقوله: **{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}** [(76) سورة هود]، فدل ذلك على أنه كان يجادلهم في قوم لوط.

وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [(75) سورة هود] مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة.

الأواه، هو كثير التأوه من ذنوبه، وخوفه من الله -تبارك وتعالى-.

قوله تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ} [(76) سورة هود] الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

(مسألة)

قيام امرأة إبراهيم لا يدل بالضرورة على أنها كانت تخدم الأضياف، وكل ما ورد في ذلك هو من المرويات المأخوذة عن بني إسرائيل، ولو كانت تخدمهم فهي امرأة كبيرة قد جاوزت التسعين، لا تمتد إليها الأنظار، فلا بأس بجلوسها، وقد قال -عز وجل-: **{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [(60) سورة النـــــور]، ثم لو كانت شابة فالكلام في شرع مَن قبلنا معروف، فليس لأحد أن يتعلق بمثل هذا الدليل.

---

[3] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-(1233/3)، برقم (3190)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد التشهد (305/1)، برقم (405).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} [(٨٤) سورة هود] **يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً -عليه السلام- وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: {أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}، يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ} أي: في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تُسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، {وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} أي: في الدار الآخرة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}، مدين هم قبيلة من العرب، قيل: سميت بذلك نسبة إلى أبيهم مدين بن إبراهيم، وقيل: نسبة إلى مدينتهم التي يقال لها مدين، والله أعلم.

وقوله: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، كل الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام- أول ما يدعون أقوامهم إلى التوحيد، إلا أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- في جميع المواضع التي وردت في القرآن لم يأت عنه أنه خاطبهم كخطاب الأنبياء، بل قال لهم: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [(٨٠) سورة الأعراف]، وقد فهم من هذا الخطاب بعض أهل العلم أن قوم لوط –عليه السلام- لم يكن عندهم إشراك كما عند الأمم الأخرى المكذِّبة، وهذا ليس بلازم، ونهيهم عن الفاحشة؛ لأنهم أول من ابتكرها ولا شك أنهم كفار، فقد كذبوا نبيهم واستهزءوا به، وسخروا منه وممن آمن معه غاية السخرية، وقالوا: {أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [(٨٢) سورة الأعراف].

وأما شعيب –عليه الصلاة والسلام- فبعد أن دعا قومه إلى التوحيد، قال لهم: {وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [(٨٤) سورة هود]، أي: في معيشتكم ورزقكم.

قوله: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} [(٨٤) سورة هود] أي: إني أخاف أن يُسلب ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله، وبعضهم فسر الخير برخص الأسعار، وبعضهم فسره بزينة الحياة الدنيا والغنى الذي هم فيه، وهذه المعاني لا منافاة بينها، فكانوا في حالة متعة في الأمور الدنيوية، لم يكن بهم قحط ولا جوع، وهذا الفعل القبيح منهم يؤدي إلى سلبهم هذه النعمة، وفساد الحال، وتحول الأمور عنهم، وقد قال –عز وجل- ناهياً عن نقصان الميزان: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَأْوِيلاً} [(٣٥) سورة الإسراء]، وقال: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ} [(١-٤) سورة المطففين].

قوله: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ* بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [(٨٥-٨٦) سورة هود].

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العُثُوّ في الأرض بالفساد.

قوله: {وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ} [(٨٥) سورة هود] أي: لا تبخسوا الناس حقوقهم ووفوا لهم إذا كلتم في المكيال وإذا وزنتم في الوزن، ويدخل في عموم الآية العدل مع الناس في كل شيء، فكما أن البخس يحرم في المكاييل والموازين كذلك يحرم في التطفيف والبخس في حقوق الناس المعنوية، كالذي ينتقص الناس ويهضمهم حقوقهم، ويظلمهم، وقد قال الله –عز وجل- {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [(٨) سورة المائدة].

{وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [(٨٥) سورة هود] يشمل العُثُوّ ما يقع من الإفساد والعبث وإلحاق الضرر بالناس في الممتلكات الخاصة أو العامة.

وقال أبو جعفر بن جرير: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ} [(٨٦) سورة هود] **أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس. قال: وقد روي هذا عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.**

قلت: ويشبه قوله تعالى: {قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [(١٠٠) سورة المائدة].

وقوله: {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [(٨٦) سورة هود] **أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله -عز وجل- لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله -عز وجل-.**

قول ابن كثير –رحمه الله- "**أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس**" هو من أحسن ما فسر به قول الله –تبارك وتعالى-: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ}، وقال بعضهم: {بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ}، أي: الدين، وقال بعضهم: أي: وصيته خير لكم، وقال بعضهم: مراقبته خير لكم.

قوله: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [(٨٧) سورة هود] **يقولون له على سبيل التهكم -قبحهم الله-:** {أَصَلاَتُكَ}، **قال الأعمش: أي: قراءتك،** {تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} **أي: الأوثان والأصنام.**

قوله: {أَصَلاَتُكَ}، وفي القراءة الأخرى المتواترة: {أَصَلَوَاتُكَ}، والقراءتان بمعنىً واحد، فالصلوات جمع، والصلاة مفرد لكنها أضيفت إلى معرفة وكاف الخطاب، وهذا بمعنى الجمع، وفسر بعض السلف قوله: {أَصَلاَتُكَ}، أي: قراءتك، وقال بعضهم: أي: دينك.

{أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء} [(٨٧) سورة هود] **فنترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد.**

"أو" حرف عطف بمعنى الواو، والمعنى: وتأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الأخذ والتصرف والعطاء، والتطفيف والبخس، فليس لأحد سلطان علينا في ذلك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الحسن في قوله: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}: إي والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم.

وقال الثوري في قوله: {أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء}: يعنون الزكاة.

قد يؤخذ من هذه الآية أن الزكاة واجبة على الأمم السابقة، ويدل على ذلك قول الله –تبارك وتعالى-: {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [(٥٥) سورة مريم].

{إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وميمون بن مهران، وابن جريج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل.

قوله: {إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} يقول الكفار ذلك على سبيل الاستهزاء، وقال بعضهم: خاطبوه بذلك باعتبار نظره واعتقاده، ومنه قول الله –تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، وقال بعضهم: إنهم كانوا يعتقدون حقيقة أنه حليم ورشيد، والأقرب -والله أعلم- أنهم قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

قوله: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}. [(٨٨) سورة هود]، يقول لهم: هل رأيتم يا قوم {إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} أي: على بصيرة فيما أدعو إليه.

في قوله –تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [(٨٨) سورة هود] جواب الشرط محذوف، ويمكن أن يقدر بـــ "أتقولون فيّ ما تقولون؟ أو أأترك دعوتكم وأمركم ونهيكم؟" ومثل هذا يفهم من السياق، والعرب تحذف من الكلام ما يمكن الاستغناء عنه ثقة بفهم المخاطب.

{وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً} [(٨٨) سورة هود] قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

النبوة والعلم والرزق الحلال كلها من الرزق الحسن، واختار ابن جرير –رحمه الله- أن الرزق الحسن هو الرزق الحلال.

وقال الثوري: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم.

كما قال قتادة في قوله: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه.

هذه الآية كقوله –تبارك وتعالى-: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [(٤٤) سورة البقرة]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه))[1]

لا تنه عن خلق وتأتي مثله*** عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها*** فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

{إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} أي: في ما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي.

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٤ /٢٢٩٠) (٢٩٨٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَمَا تَوْفِيقِي} أي: في إصابة الحق فيما أريده، {إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

{وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} [(٨٩-٩٠) سورة هود].

يقول لهم: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي} أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

وقال قتادة: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي} يقول: لا يحملنكم فراقي، وقال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

قوله {لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي}، أي: لا تحملكم عداوتي على الإعراض والكفر والتكذيب فيقع بكم، وينزل بكم العذاب الذي نزل بغيركم.

وقوله: {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران.

{وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ} من سالف الذنوب، {ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ} في ما تستقبلونه من الأعمال السيئة، وقوله: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} لمن تاب.

الود بمعنى المحبة، والودود بمعنى المحب، فالله -تبارك وتعالى- يحب أهل الإيمان والتقوى، كما قال الله -عز وجل-: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [(٥٤) سورة المائدة]، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله))[٢].

{قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}. [(٩١-٩٢) سورة هود]، يقولون: {يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ} ما نفهم، {كَثِيراً} من قولك، وقال الثوري: كان يقال له: خطيب الأنبياء.

حُسْن المحاورة والبيان والمجاوبة من شعيب –عليه السلام- كان سبباً لإطلاق خطيب الأنبياء عليه، وورد هذا في بعض الآثار[٣].

قال السدي: {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً} قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} أي: قومك، لولا معزتهم علينا لرجمناك، قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك.

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب (١٣٥٧/٣)، برقم (٣٤٩٨).

[٣] - عن محمد بن إسحاق قال : و شعيب بن ميكائيل النبي -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله نبيا فكان من خبره و خبر قومه ما ذكر الله في القرآن، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكره قال : ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه. رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٢٠) (٤٠٧١)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرهط: من الثلاثة إلى العشرة، أي: أن رهطه كانوا قلة، فلم يكن قوياً ممنعاً في قومه، وليس له قبيلة كبيرة وجماعة أقوياء كُثْر يحمونه، وقد قال قومه: {تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(٤٩) سورة النمل]، وقوله: {لَرَجَمْنَاكَ} قيل: بالحجارة، وقيل: لسببناك، وقيل: لقتلناك.

{وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} أي: **ليس عندنا لك معزة، {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ} يقول: أتتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب -تبارك وتعالى- أن تنالوا نبيه بمساءة، وقد اتخذتم جانب الله وراءكم ظهرياً، أن نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه.**

{إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} أي: **هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.**

قوله: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}. [(٩٣-٩٥) سورة هود]، لما يئس نبي الله شعيب -عليه السلام- من استجابتهم له، قال: {يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي: طريقتكم، وهذا تهديد شديد، {إِنِّي عَامِلٌ} على طريقتي، {سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ} أي: مني ومنكم، {وَارْتَقِبُوا} أي: انتظروا، {إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}، قال الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، وقوله: {جَاثِمِينَ} أي: هامدين لا حراك بهم، وذكر هاهنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [(١٨٩) سورة الشعراء]، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا} [(٨٨) سورة الأعراف] ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصحية التي استلبثتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [(١٨٧) سورة الشعراء] ، قال: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٨٩) سورة الشعراء]، وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

وقوله: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك، {أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، أي: طريقتكم، أو اعملوا على غاية تمكنكم، ونهاية استطاعتكم.

وسبق في سورة الأعراف أن أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة، وأنهم طائفة واحدة ولم يُبعث إلى قومين، وهذه العقوبات وقعت لهم مجتمعة.

وقوله: {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا} أي: كأن لم يقيموا فيها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(مسألة)

الأخوة في قوله –تبارك وتعالى-: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [(٨٤) سورة هود] أخوة باعتبار القبيلة والنسب، فقد تكون الأخوة باعتبار النسب أو القبيلة، أو باعتبار الشبه في العمل، أو باعتبار الاجتماع في البلد الواحد، أو باعتبار الدين، فإذا كان باعتبار الدين فالمسلم ليس بأخٍ للكافر، قال –تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [(١٠) سورة الحجرات]، وأما بالاعتبارات الأخرى فيمكن أن يقال أخ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [سورة هود(٩٦-٩٩)].

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى -عليه السلام- بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه، {فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ} أي: منهجه ومسلكه وطريقته في الغيّ، {وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مُقدَّمهم ورئيسهم كذلك هو يَقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا} [سورة المزمل(١٦)]، **وقال تعالى: {فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}** [سورة النازعات(٢١-٢٦)]، **وقال تعالى: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}، وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ}** [سورة الأعراف(٣٨)]، **وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ}** [سورة الأحزاب(٦٧-٦٨)] **الآية.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ}** يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة**"، الآيات هي الدلالات، وأصل معنى الآية العلامة، يقول: **{بِآيَاتِنَا}** أي: بأدلتنا على التوحيد، **{وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ}** يعني: البرهان والحجة التي تبين لمن عاينها الحق والهدى، كما يعبر ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من يقول: إن الآيات المراد بها الآيات التسع، **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}** [سورة الإسراء(١٠١)]، والسلطان المبين هو العصا، والعصا هي من جملة الآيات التسع، لكن يقولون: إنها أفردت بالسلطان -على هذا القول-؛ لتميزها وشأنها وأهميتها، حيث إنها التقفت ما يأفكه السحرة، ومن أهل العلم من يقول: إن الآيات المقصود بها التوراة، والسلطان المبين: المعجزات.

وقوله: {وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} الآية أي: أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ}، قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك وقتادة.

وهو كقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} [سورة القصص(٤١-٤٢)]، وقال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [سورة غافر(٤٦)].

فسر قوله -تبارك وتعالى-: {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} باللعنتين في الدنيا والآخرة، وهذا لا إشكال فيه، ومعنى الرِّفد الإعانة، فيكون معنى {بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} أي: بئس العون الذي قدموه لهم، وأعانوهم به، وذلك بأن أُتبعوا لعنة بعد لعنة.

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} [سورة هود(١٠٠-١٠١)].

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى} أي: أخبارهم، {نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ} أي: عامر، {وَحَصِيدٌ} أي: هالك.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جيد وواضح، {مِنْهَا قَائِمٌ} أي: عامر، {وَحَصِيدٌ} أي: هالك، وقيل: {قَائِمٌ} أي: على عروشه، {وَحَصِيدٌ} يعني لا أثر له، بمعنى أن الله أزاله بالكلية، وقيل: إن القائم هو الخاوي على عروشه، والحصيد هو الخراب.

فقوله: {مِنْهَا قَائِمٌ} يعني: أن من ديار هؤلاء ما هو قائم، كما هو الحال في ديار ثمود، فهي موجودة وقائمة إلى يومنا هذا، {وَحَصِيدٌ} يعني: أن الله -عز وجل- قد أزالها ومحاها، كما هو الحاصل في قرى قوم لوط، فمنها هكذا ومنها هكذا، وأصل ذلك -يعني الحصيد- ما يحصد من الزرع، فهذا الزرع الذي يحصد لا يكون له قيام بعد الحصاد، وهذا شاهَده الناس في هذا الزمان، في طوفان تسونامي، فصارت القرى حصيداً، وتحولت تلك الديار والمدن أو القرى إلى شيء كالهشيم، محطمة، لا ترى منها شيئاً قائماً، فبأس الله -عز وجل- قوي ونكاله شديد، والله المستعان.

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ} أي: إذا أهلكناهم، {وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ} بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ}: أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها، {مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}: ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم، {وما زادوهم غير تتبيب}، قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير؛ وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة؛ فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود(١٠٢)].

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ} الآية[1].

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}[سورة هود(١٠٣-١٠٥)].

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين {لآيَةً} أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [سورة غافر(٥١)]، وقال تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [سورة إبراهيم(١٣)] الآية.

وقوله: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ} أي: أولهم وآخرهم، كقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٧)]، {وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} أي: عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ} أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها.

{يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} أي: يومَ يأتي يومُ القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: {لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [سورة النبأ(٣٨)]، وقال: {وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} [سورة طـــه(١٠٨)] الآية.

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: ((ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذٍ اللهم سلِّم سلِّم))[2].

هذه الآيات يذكر الله -عز وجل- فيها أنهم لا يتكلمون، أو لا يتكلم أحد إلا بإذنه، وما شابه ذلك، ومنها ما ذكر الله فيه كلامهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، وكذلك أنهم يقولون: {يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [سورة يـــس(٥٢)]، وأشباه ذلك من الكلام الذي يقولونه حينما يتساءلون عن مدة مكثهم وبقائهم في الحياة الدنيا، والجمع بين هذه الآيات أن يقال بأن يوم القيامة يوم طويل، ففي وقت منه لا يتكلم أحد، وفي بعض الأوقات يتكلمون، كما ذكر الله -عز وجل- عن الكفار: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ}[سورة الرحمن(٣٩)]، وفي موضع آخر يقول: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [سورة الصافات(٢٤)]، فكذلك أيضاً، لا يُسألون في وقت ويُسألون في وقت آخر، أو أنهم لا يُسألون

---

١ - رواه البخاري برقم (٤٤٠٩)، كتاب التفسير، تفسير سورة هود، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، ومسلم برقم (٢٥٨٣)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

٢ - جزء من حديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم (٧٠٠٠)، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [سورة القيامة(٢٢-٢٣)]، ومسلم برقم (١٨٢)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سؤال استعتاب، وإنما يُسألون سؤال تبكيت وتقريع، كقوله تعالى: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} [سورة المدثر(٤٢)]، حينما يدخلون النار -والله أعلم-.

وقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [سورة الشورى(٧)].

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر عن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت: يا رسول الله علام نعمل؟، على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: ((على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له))[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}: يعني في الآخرة، وحديث عمر وحديث سراقة بن مالك -رضي الله تعالى عنهم- في الدنيا، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن(٢)]، فالفاء تدل على التعقيب المباشر، ولهذا فإن الآية تحتمل كما قال طائفة من السلف: أنه خلقهم بهذه الصفة، طبع قوماً على الكفر، وقوماً على الإيمان، كما في حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي))، قال: فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: ((على مواقع القدر))[٤]، وكذلك أيضاً ما جاء في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، حديث الصادق المصدوق وفيه: ((ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...))[٥]، والمعنى الآخر الذي تحتمله الآية: {خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ}: أن الفاء للتعقيب المباشر، لكن المباشرة في كل شيء بحسبه، خلقهم فدرجوا في هذه الحياة، ثم بعد ذلك منهم من اختار طريق الإيمان، ومنهم من اختار طريق الكفر، وهذان المعنيان لا منافاة بينهما، فالله -تبارك وتعالى- قد علم منذ الأزل أصحاب النار وأصحاب الجنة، وكتب ذلك في كتاب، ونحن لم نطلع على هذا الكتاب، والله -عز وجل- أعطى الإنسان قدرة واختياراً ومشيئة، ولا يخرج شيء من ذلك عن إرادته ومشيئته، {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الإنسان(٣٠)]، والإنسان مأمور بأن يعمل ويتقرب إلى الله -عز وجل-، وأن

---

٣ - رواه الترمذي برقم (٣١١١) واللفظ له، كتاب تفسير القرآن، باب ومن تفسير سورة هود، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الملك بن عمرو، والبخاري بمعناه برقم (٤٦٦٦)، كتاب التفسير، باب {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [سورة الليل(١٠)]، من حديث علي -رضي الله عنه-، ومسلم برقم (٢٦٤٩)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-، أما رواية الحافظ أبي يعلي فلفظها من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله نعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نأتنفه؟ قال: ((لأمر قد فرغ منه))، فقال سراقة بن مالك: ففيم العمل إذا؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كل ميسر لعمله))، (٤/٤٥)، برقم (٢٠٥٤)، وقال محققه حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح.

٤ - رواه أحمد في المسند (٢٩/٢٠٦)، برقم (١٧٦٦٠)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

٥ - رواه البخاري برقم (١٢٢٦)، كتاب القدر، باب في القدر، ومسلم برقم (٢٦٤٣)، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يطيع ربه ولا يطيع الشيطان، والناس ليس لهم أن يحتجوا بشيء من هذا، فهم في دنياهم لا يتركون العمل، وأقل ذلك الأكل والشرب، فإذا كان الإنسان يقول: إن الله كتب كل شيء ومن ذلك الأجل والرزق فلماذا نأكل إذاً؟ فهو في هذه الأمور لا يترك فعل الأسباب في الكسب والتجارة وما شابه هذا، وبعض الناس -لغلبة هواه في عمل الآخرة- ربما يحتج بمثل هذه النصوص، والله المستعان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله-: ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}. [(١٠٦-١٠٧) سورة هود].

يقول تعالى: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق؛ لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فأورد المصنف –رحمه الله- قول ابن عباس –رضي الله عنهما- في قول الله –تبارك وتعالى- : {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ}، قال: "**الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق**"، يعني: الذي يدخل يقال له: شهيق، والذي يخرج يقال له: زفير، وهذا معنى تنفسهم، فليست الجملتان معناهما واحد، بل إحداهما عكس الأخرى، وقال بعض أهل العلم: الزفير هو الصوت الشديد المرتفع، وهذا القول وإن قال به بعض أهل اللغة إلا أنه لا يخلو من بعد، وقال بعضهم: الزفير هو ابتداء صوت الحمار، والشهيق هو آخر صوته، وهذا القول اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وقال بعضهم: الزفير هو إخراج النفس، والشهيق إدخاله، وهذا هو المشهور المعروف.

وقال بعضهم: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: الزفير هو تردد النفس بسبب الخوف، وعند التأمل نجد أن بعض هذه الأقوال لا منافاة بينها.

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} [(١٠٧) سورة هود] **قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائمٌ دوام السماوات الأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، وما سمر ابنا سمير، وما لألأت العفر بأذنابها، يعنون بذلك كله (أبداً)، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}.**

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو جواب على سؤال معروف، وهو أن السماوات والأرض ليست دائمة ومستمرة باقية، والله -عز وجل- يقول: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(٤٨) سورة إبراهيم]، والله -عز وجل- قال عن أهل الجنة وأهل النار من جهة خلودهم: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}، فيرد سؤال: أن السماوات والأرض يحصل لهما الزوال، فكيف علّق خلودهم بأمر زائل؟ والجواب: هو أن العرب قد تعلق الأمر بزائل وتقصد بذلك التأبيد،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما يقولون: هذا باقٍ بقاء السماوات، هذا باقٍ ما غرد الطير، وهبت الريح، وتتابع الليل والنهار، وما أشبه هذا، ويقصدون به الدوام والاستمرار، والقرآن نزل بلغة العرب وبأساليبهم، فنعيم أهل الجنة لا يزول، وعذاب أهل النار لا يزول.

قلت: ويحتمل أن المراد بـــ {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [(٤٨) سورة إبراهيم]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ} قال: يقول سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقوله: {إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}، كقوله: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(١٢٨) سورة الأنعام]، قيل: إن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين.

بعد أن انتهى من السؤال الأول وهو: كيف علق خلود أهل الجنة أو أهل النار ببقاء السماوات والأرض؟ وأجاب عنه بجوابين، جاء السؤال الثاني، وهو أن الله علق الخلود بالمشيئة، فقال: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود]، وللعلماء في هذه المشيئة أقوال مختلفة. **قيل: إن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.**

هذا المعنى وجه جيد في الجواب، وهو اختيار ابن جرير، وهناك أقوال أخرى في توجيه هذه الآية، فمن أهل العلم من قال: إن الاستثناء في قوله -تبارك وتعالى-: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود] يرجع إلى قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [(١٠٦) سورة هود]، إذا كانت هذه الآية تعم المسلمين والكافرين فالذين شقوا يكونون في النار {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} ويكون المعنى: الذين شقوا في النار إلا من شاء الله، فلا يدخل النار بسبب رحمة الله، أو بشفاعة أحد الشافعين، أو مصائب مكفرة، أو غير ذلك من الموانع.

وقال بعض أهل العلم: الاستثناء في قوله: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} يرجع إلى الزفير والشهيق، أي: لهم أنواع من العذاب غير الزفير والشهيق، وهذا لا يخلو من بعد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال بعضهم: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ}، يرجع إلى قوله: {خَالِدِينَ}، وهذا الذي مشى عليه المصنف -رحمه الله- وسبقه إليه طائفة من السلف، وقال به ابن جرير الطبري –رحمه الله- فيخلد الكفار ويخرج أهل الإيمان، كما جاء في الأحاديث، ((أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان))[1].

وقال بعضهم: إن الاستثناء في قوله –تبارك وتعالى-: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} يرجع إلى قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا}، وهم الكفار، قالوا: إن الكفار يفنون، تفنيهم النار ثم يتجدد خلقهم، ثم تفنيهم ويتجدد خلقهم وهكذا.

ومنهم من قال: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} دليل على أن النار تفنى، وهذا القول منسوب إلى طائفة من السلف، واحتجوا ببعض الآثار الواردة في ذلك، ولكن لا يصح من هذه الآثار شيء، واحتجوا بقوله –تبارك وتعالى-: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [(٢٣) سورة النبأ]، وهذا القول وإن قال به بعض السلف إلا أنه قول باطل، والنصوص والآيات واضحة في بقاء العذاب ودوامه، وأنه لا ينقطع ولا يفتر ولا يخفف عنهم، كما قال الله -عز وجل- في آيات كثيرة: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}.

وقال بعض أهل العلم: الاستثناء في قوله: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} بمعنى سوى، وهذا بعيد.

وأرجح الأقوال في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود] أن التعليق فيها بالمشيئة كالتعليق في قول الله –تبارك وتعالى-: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [(٢٧) سورة الفتح]، فدخولهم المسجد الحرام حاصل قطعاً، فقد قضاه الله -عز وجل- وقدره، وإنما ذكر المشيئة؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل- فكذلك التعليق في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}.

قوله: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [(١٠٨) سورة هود]، يقول تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ} وهم أتباع الرسل، {فَفِي الْجَنَّةِ} أي: فمأواهم الجنة، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها أبداً، {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ} معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس.

وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها.

وعقّب ذلك بقوله: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: غير مقطوع، قاله مجاهد وابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو العالية وغير واحد؛ لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثَمّ انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [(١٠٧) سورة هود] كما قال: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [(٢٣) سورة الأنبياء].

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١ / ١٦)، برقم (٢٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١ / ١٧٢)، برقم (١٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قول الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "**معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى**" هو القول الراجح في هذه المسألة، وقد قال أهل البدع والأهواء بانقضاء نعيم الجنة وقد رد عليهم ابن القيم –رحمه الله- في النونية، والشنقيطي في العذب المنير، وفي دفع إيهام الاضطراب في تفسير سورة عم، وغيرهم من أهل العلم.

وهنا طيّب القلوب وثبت المقصود بقوله: {عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، وقد جاء في الصحيحين: ((يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت))[٢]**، وفي الصحيح أيضاً: ((فيقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً))**[٣].

من أسماء الله -عز وجل- الأول والآخر، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، بقاء الجنة وأهلها بإبقاء الله تعالى، والله -عز وجل- هو قائم بنفسه.

{فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}. [(١٠٩-١١٠) سورة هود].

يقول تعالى: {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ} المشركون، إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ}، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى -عليه السلام- الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك، ولا يهيدنّك ذلك.

قوله: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ} قال بعض أهل العلم: التوفية لا تستلزم الكمال؛ ولهذا قال: {غَيْرَ مَنقُوصٍ}، وقال عبد الرحمن بن زيد: لموفوهم من العذاب نصيبهم، وقيل: {لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ} أي: ما قدره الله -عز وجل- وكتبه لهم من الخير والشر، يحصل لهم في الدنيا، فينالهم ما كتبه الله -تبارك وتعالى- لهم منذ الأزل لا ينقص منه شيء، ولا يفوت شيء من هذا الذي قضاه الله -عز وجل- وقدره، وهذا قال به كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [(١١٠) سورة هود]، قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ} (٤/١٧٦٠)، برقم (٤٤٥٣) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٨)، برقم (٢٨٤٩).

[٣] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٤ / ٢١٨٢)، برقم (٢٨٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء]، فإنه قد قال في الآية الأخرى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [(١٢٩-١٣٠) سورة طـه].

ويحتمل أن تكون الكلمة هي: أن رحمته سبقت غضبه، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة: ما قضاه الله -عز وجل- وقدره أنه لا يعذبهم بعذاب الاستئصال، والقول بأن المراد بالكلمة أنه قد جعل لهم وقتاً معلوماً لا يتقدم ولا يتأخر أقرب هذه الأقوال، وهو قول ابن جرير -رحمه الله-.

والضمير في قوله: {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يرجع إلى قوم موسى؛ لأن الله -عز وجل- قال في بداية الآية: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ}، وقال بعضهم: يرجع الضمير إلى المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، والأول أقرب.

ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال: {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(١١١) سورة هود] أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [(٣٢) سورة يـــس].

قوله: {وَإِنَّ كُلاًّ} قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ نافع وابن كثير بالتخفيف {وإِنْ كلاً}، وليست "إنْ" المخففة نافية؛ لأنها لو كانت كذلك لصار الذي بعدها مرفوعاً، وقرأ عاصم وحمزة ونافع: {لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ} بالتشديد، وقرأ الجمهور بالتخفيف {لَمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ}.

وقد قال بعض أهل العلم: {لَّمَّا} بمعنى "إلا" التي تدل على الاستثناء، وهذا القول قال به جميع نحاة البصرة، وهو قول الخليل بن أحمد وسيبويه، وهو من أحسن الأقوال وأقواها، وقال بعض أهل العلم: إن {لَّمَّا} بمعنى "مَن" وهو اختيار ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

قوله: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ} [(١١٢-١١٣) سورة هود]، يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، -وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء- ومخالفة الأضداد، ونهَى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعْلَمَ تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

الطغيان يأتي بمعنى تجاوز الحد، ويكون بمعنى الغلو والزيادة على ما شرعه الله -عز وجل- .

وقوله: {وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} [(١١٣) سورة هود] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لا تداهنوا.

وقال ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم.

القول بأن الركون: هو الميل، قول معروف عند أهل اللغة وبه قال كثير من المفسرين، وعلى كل حال هذا لا ينافي قول من قال: لا تداهنوا؛ فإن مداهنة هؤلاء الكفار لا تجوز، وهي لون من الركون إليهم، وهكذا قول من قال: لا تستعينوا بالظلمة، أو لا تميلوا إلى الظلمة، وهذه الأقوال ترجع إلى معنىً واحد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} [(١١٣) سورة هود] أي: **ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.**

{وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}. [(١١٤-١١٥) سورة هود].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} قال: يعني الصبح والمغرب، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر.

وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره.

وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه.

عامة أهل العلم يتفقون على أن الطرف الأول هو الفجر، وإن وجد من قال: إنه الظهر، لكنهم اختلفوا كثيراً في الطرف الثاني، فبعضهم يقول: العصر، وبعضهم يقول: الظهر، وبعضهم يقول: الظهر والعصر، وبعضهم يقول: المغرب، فالذين قالوا: إن طرف النهار الأول هو الظهر قالوا: إن النهار يبدأ من طلوع الشمس، فالفجر ليس بطرف للنهار، وإنما هو أول اليوم، والنهار لا يكون إلا بعد طلوع الشمس، والقول بأن الطرف الأول هو الفجر والطرف الثاني هو المغرب هو قول ابن جرير، وليس ببعيد.

قوله: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء، وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} يعني: المغرب والعشاء، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هما زُلْفَتا الليل: المغرب والعشاء))[٤]، وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء.

القول الذي قال به الحسن في رواية ابن المبارك قال به مجاهد {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} يعني: المغرب والعشاء، ولو صح الحديث الذي أورده المصنف ((هما زُلْفَتا الليل: المغرب والعشاء)) لكان رافعاً للخلاف؛ لأن التفسير إذا صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يُلتفت إلى غيره.

والزُّلَف جمع زلفة، وفسره بعضهم بالساعات القريبة، وقال ابن جرير: {وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ} ساعات من الليل، وبعضهم فسر الزلف من الليل بأول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس.

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول، والله أعلم.

---

[٤] - ذكره ابن جرير في تفسيره، (١٥ / ٥٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا القول ليس بلازم، بل لا يخلو من إشكال وبعد، والسبب في هذا أن سبب النزول يدل على أن الآية نزلت في المدينة في الرجل الذي قبّل امرأة، كما ورد ذلك في الصحيحين[٥]، ولو فرضنا أن قول الله –تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ} يعني الفجر والمغرب، فإن هذا لا يعني أن الآية تتحدث عن الأمر الأول وأن الناس كانوا يصلون صلاة في أول اليوم، وصلاة في آخره، فإن ذكر الطرفين يتضمن ذكر ما بينهما، كما يقول الله -عز وجل-: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة: من الآية١١٥].

---

٥ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (١ / ١٩٦)، برقم (٥٠٣)، ومسلم (٤ / ٢١١٥)، برقم (٢٧٦٣)، كتاب التوبة، باب قول الله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)، من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأنزل الله {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}، فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا ؟ قال: (لجميع أمتي كلهم)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة هود (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [سورة هود(١١٤)] يقول: إنّ فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر -وصدق أبو بكر- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له))[١]، وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: هكذا رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتوضأ وقال: ((من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه))[٢].

وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يُبقى من درنه شيئاً؟))، قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((وكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا))[٣].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر))[٤].

---

١ - رواه أبو داود برقم (١٥٢١)، كتاب الوتر، باب في الاستغفار، والترمذي برقم (٤٠٦)، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، وابن ماجه برقم (١٣٩٥)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة، وأحمد في المسند (٢١٩/١)، برقم (٤٧)، واللفظ له، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٣٦١)، وفي صحيح الجامع برقم (٥٧٣٨).

٢ - رواه البخاري برقم (١٥٨)، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا، ومسلم برقم (٥٦١) كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، ورقم (٥٦٦)، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه.

٣ - لم أجده بهذا اللفظ وإنما رواه البخاري برقم (٥٠٥)، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ولفظه: ((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبقي من درنه)). قالوا: لا يبقى من درنه شيئا، قال: ((فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا))، ومسلم برقم (٦٦٧)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا وترفع به الدرجات.

٤ - رواه مسلم برقم (٢٣٣)، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وروى البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره فأنزل الله: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: ((لجميع أمتي كلهم))[٥] هكذا رواه في كتاب الصلاة، وأخرجه في التفسير بنحوه.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تبايعه فأدخلتُها الدولج فأصبت منها ما دون الجماع، فقال: ويحك لعلها مُغيبة في سبيل الله؟ قال: أجل، قال: فائت أبا بكر فسله، قال فأتاه فسأله فقال: لعلها مُغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له مثل ذلك، فقال: ((لعلها مُغيبة في سبيل الله))، ونزل القرآن: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب -يعني عمر- صدره بيده وقال: لا، ولا نَعمَة عين، بل للناس عامة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق عمر))[٦].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} الحسنات "ال" إما أن تكون العهدية، بمعنى أنها حسنات خاصة، وهي المذكورة في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ}، وعامة أقوال أهل العلم تدور على أنها الصلوات الخمس، على اختلاف في التفاصيل في المراد بالصلاة طرف النهار، والصلاة في زلف من الليل، فالحسنات يعني تلك الصلوات التي تكون في طرف النهار أو في طرفي النهار، أو في طرفه وفي طرفيه، وفي زلف من الليل تذهب السيئات، باعتبار هذا المعنى والأحاديث التي وردت، كما أورد الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا، وإما أن يقال: إن "ال" في الحسنات للتعريف، يعني جنس الحسنات يذهب جنس السيئات، وابن جرير -رحمه الله- حمل الحسنات على الصلوات الخمس باعتبار أن الله قبلها ذكر {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ}، وكذلك الأحاديث الواردة في هذا المعنى، ولا شك أن الصلوات الخمس كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- كفارة لما بينهن، وذلك لا يختص بالصلوات؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها))[٧]، وذلك مما يندب في التوبة، وإتباع السيئة بالحسنة تكفير لها لا سيما -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذا كان ذلك من جنسها، لو أنه حصل له تقصير في الصلاة، يعني فاتته صلاة من الصلوات بتفريط، فإنه يكثر من النوافل، فالحسنات يذهبن السيئات، ولهذا ثبت عن النبي

---

٥ - رواه البخاري برقم (٥٠٣)، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة.

٦ - رواه أحمد في المسند (٨٤/٤)، برقم (٢٢٠٦)، وقال محققوه: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد، ولين يوسف بن مهران، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٥/١٢)، برقم (١٢٩٣١).

٧ - رواه الترمذي برقم (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في معاشرة الناس، وأحمد في المسند (٢٨٤/٣٥)، برقم (٢١٣٥٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن لغيره، في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٦٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-صلى الله عليه وسلم- أنه قال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه-: ((إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا –عزوجل- لملائكته -وهو أعلم-: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئا قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم))[٨]، وهكذا بالنسبة للصيام، فالحسنات لفظ عام؛ والعبرة بما غلب، فالناجي هو الذي غلبت حسناته على سيئاته، والله -عز وجل- يقول: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم} [سورة الأعراف(٨-٩)]، وقوله أيضاً: {السَّيِّئَاتِ} هل يقال: إن "ال" للجنس، أو يقال: هذا من العام المخصوص، فيما يتعلق بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[٩] بهذا القيد؟، فيكون المقصود بذلك الصغائر، فالصغائر تكفر بالتوبة، وتكفر أيضاً بما يفعله الإنسان من الحسنات، كالوضوء مثلاً، والصلاة، والصدقات وغير هذا، وإذا كانت الحسنات عظيمة فإن السيئات قد تنغمر في بحر هذه الحسنات، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم))[١٠]، وقال في قصة حاطب: ((ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم))[١١]، والأصل في الكبائر أنها تحتاج إلى توبة، وقد يزول أثرها ولا يعاقب الإنسان بها لسبب آخر، كالشفاعة، أو المصائب التي تقع للإنسان، مصائب مكفرة، أو غير ذلك مما يذكره أهل العلم، ثم ذكر سبب النزول، وقد جاء هذا في روايات كثيرة منها الصحيح ومنها ما هو دونه، ومجموع ذلك يدور على أن رجلاً ألم بامرأة فيما دون الفرج، يعني مما لا يوجب الحد، فجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فنزلت هذه الآية: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ

---

٨ - رواه أبو داود برقم (٨٦٤)، كتاب الصلاة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه))، والنسائي برقم (٤٦٥)، كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، والترمذي برقم (٤١٣)، وقال: "حديث حسن غريب من هذا الوجه"، أبواب الطهارة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، وأحمد في المسند (٢٩٩/١٥)، برقم (٩٤٩٤)، وقال محققوه: حديث صحيح، والحاكم في المستدرك وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم" (٣٩٤/١)، برقم (٩٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٢٠)، وفي صحيح أبي داود برقم (٨١٠).

٩ - رواه مسلم برقم (٢٣٣)، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

١٠ - رواه الترمذي برقم (٣٧٠١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في مناقب عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، من حديث عبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه-، والحاكم في المستدرك (١١٠/٣)، برقم (٤٥٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٢٣/٣)، برقم (٦٠٦٤).

١١ - رواه البخاري برقم (٢٩١٥)، كتاب الجهاد والسير، باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن، ومسلم برقم (٢٤٩٤)، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}، وهذه الرواية عند الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تبايعه، يقول: فأدخلتها الدولج – الدولج هو المِخدع، ويقال بالفتح أيضاً: المَخدع، وهي غرفة صغيرة داخل غرفة، يعني غرفة يوضع فيها نفيس المتاع داخل غرفة، يعني أشبه ما تكون بخزانة داخل غرفة-، وقال لها: عندي تمر جيد في الداخل ما عرضته، فأدخلها الدولج، فنال منها، فقال: ويحك، لعلها مُغيبة، يقال: امرأة مُغيبة إذا غاب عنها زوجها، ذهب للجهاد، وهذا لا شك أنه أعظم أن ينتهك حرمتها ويخونه في أهله، وهذه الرواية التي ذكرها هنا عند الإمام أحمد في إسنادها ضعف ولكن مجموع الروايات لا شك أنها تتقوى به، وإن كانت هذه الرواية لا تخلو من ضعف.

{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ إِلاّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [سورة هود(١١٦-١١٧)].

يقول تعالى فهلّا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: {إِلَّا قَلِيلاً} أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته؛ ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قول الله -عز وجل-: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ}، {فَلَوْلاَ} أي: هلّا، {كَانَ مِنَ الْقُرُونِ} يعني: الأمم الماضية المهلَكة، هلا كان فيهم {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ}، البقية في الأصل اسم لما يبقيه الإنسان حينما يُخرج من ماله، فإنه يستبقي عادة أجوده؛ ولهذا أطلقت هذه اللفظة على ما يدل على الجودة، فإذا قيل: فلان من البقية الباقية، أو قيل: فلان من أولي البقية، هلا كان من القرون من قبلكم أولو بقية، لولا كان {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} يعني: أصحاب عقول راجحة رزينة ناضجة، وأهل دين، فهؤلاء هم أولو البقية، ناس عقلاء، فيهم عقل ودين، {يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ إِلاّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً، فيكون {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ إِلاّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} كانوا أصحاب بقية، كانوا أهل بقية فأنجاهم الله -عز وجل-، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} [سورة الأعراف(١٦٥)]، في قصة أصحاب السبت، ويحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً، أي ما كان فيهم من كانوا بهذه الصفة {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} ممن ينهون عن الفساد في الأرض.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- {إِلاّ قَلِيلاً} أي: "**قد وجد منهم من هذه الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله**"، فعلى هذا يكون الاستثناء من قبيل المتصل، وهذا هو الأقرب، ولا حاجة للقول بأنه من قبيل المنقطع، فيكون المعنى: فهلا كان من القرون من قبلكم من الأمم المهلَكة {أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ} عقلاء أصحاب عقول راجحة ودين ينهون عن الفساد في الأرض {إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ} [سورة المائدة(١٣)] يعني: وُجد منهم قليل؛ لأن قوله: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ} مضمن معنى النفي، لم يوجد منهم ناس بهذه الصفة، ولهذا جاءت لولا هذه للتحضيض، هلا كان فيكم من يفعل كذا وكذا، وإلا لما قال لهم ذلك {إِلاّ قَلِيلاً} يعني:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كأنه يقول: لم يوجد فيهم من يتصف بهذا الوصف إلا قليلاً ممن أنجاهم الله -عز وجل-، وهذا كما جاء في الآيات في إنجاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- في الآيات التي سبقت، ومن معهم، ابتداءً من نوح -عليه الصلاة والسلام- فمن بعده، ولا شك أن هؤلاء الأمم الذين قص الله خبرهم فيهم من ينطبق عليه هذا الوصف ولابد، وهم الأنبياء الذين دعوهم إلى الله -عز وجل-، قال: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} [سورة العنكبوت(٣٢)]، وكذلك نوح -عليه الصلاة والسلام- وهود وصالح وشعيب -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران(١٠٤)]، وفي الحديث: ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب))[١٢].

ولهذا قال تعالى: {فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ}، وقوله: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ} أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فَجَأهم العذاب {وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قريةً مصلحةً بأسُه وعذابُه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود(١٠١)]، وقال: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت(٤٦)].

قوله -عز وجل-: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ}، المترَف: هو الذي غذي باللذات والنعم، وقيل: هو الذي أبطرته النعم، أكثر منها وتوسع فيها، فهو الإنسان المنعم، ولا يشترط في المترف أن يكون قد أبطرته النعم، فمن غذي بالنعم وأكثر منها فإنه يكون بهذه الصفة، بخلاف من لقي من العيش كدراً وعناءً بسبب تحصيله، فهذا لا يكون مترفاً، فالله -عز وجل- قال: {وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ} يعني: صاروا تابعين للنعم التي صاروا مترفين بها، اتبعوا الشهوات، اتبعوا ملذات الدنيا، ومظاهرها ومباهجها واشتغلوا بها عن الدار الآخرة، وصارت هي همهم ومقصودهم ومطلوبهم عن اتباع الرسل والعمل بعمارة آخرتهم.

وقوله: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: بالشرك، لقوله تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان(١٣)]، من باب العام المراد به الخصوص، وإلا فظاهر اللفظ العموم؛ لأن كلمة ظلم نكرة في سياق النفي، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أيّ ظلم، صغير أو كبير، هذا ظاهر اللفظ فمن فسره بأنه الشرك يعني: بشركٍ قال: إن هذا من العام المخصوص، كقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام(٨٢)] فهذه مثلها باعتبار أن ظاهرها العموم، نكرة في سياق النفي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فسر تلك بآية لقمان {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، فيكون المعنى على هذا التفسير: أي أن الله لم يكن يهلك القرى بشركٍ، أي: بسبب إشراكهم -فالباء للسببية- إلا ومعه أمر آخر، يعني أن الله أهلك قوم شعيب -عليه

---

١٢ - رواه أحمد في المسند (٢٢١/١)، برقم (٥٣)، من حديث أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وقال محققوه: إسناده على شرط الشيخين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصلاة والسلام- لأنهم كانوا يطففون -مع الشرك- المكاييل والموازين، وقوم لوط لأنهم يفعلون الفاحشة، وهكذا، فما كان الهلاك واقعاً بهم لمجرد إشراكهم أو بسبب إشراكهم فحسب، بل لابد أن يكون معه أمر آخر من الظلم والفساد المتعدي، وعلى هذا يكون قوله: {بِظُلْمٍ} يرجع إلى المفعول المهلَكين، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: بظلم واقع منهم، أي بشرك حاصل منهم فلابد أن يكون معه أمر آخر، والمعنى الثاني: أن قوله: {بِظُلْمٍ} حال من الفاعل، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} أي: وهو ظالم لهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ} [سورة هود(١٠١)] أي: أنه لم يقع هذا الإهلاك والتدمير الذي قص الله فيه أخبارهم وما جرى لهم من المثُلات وهو ظالم لهم، وإنما كان ذلك بسبب ظلمهم هم وعصيانهم وكفرهم بالله -عز وجل-، وهذا المعنى هو المعنى الراجح، والمعنى الأول لا حاجة إليه، فالأصل فيما ظاهره العموم أنه محمول على الظاهر إلا لدليل يدل على أنه يراد به خلاف الظاهر، ولا يوجد، والأمر الثاني أن الشرك هو أعظم الظلم، أكبر الجرائم، فهو وحده يكفي لإهلاكهم وتدميرهم ولا حاجة لأن يكون عندهم جرائم أخرى مع الشرك، -والله أعلم-.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود (١١٨-١١٩)].

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً}، وقوله: {وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} أي: ولا يزال الخُلف بين الناس.

ولا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونِحَلهم ومذاهبهم وآرائهم.

وقوله: {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً: ((إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة))، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))[١٣] رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

---

١٣ - رواه أبو داود برقم (٤٥٩٦)، كتاب السنة، باب شرح السنة، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- ولفظه: ((افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة))، وصحح هذا اللفظ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٣)، وابن ماجه برقم (٣٩٩٢)، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، والترمذي برقم (٢٦٤١)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- بلفظ: ((ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي))، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٤٨)، والحاكم في المستدرك (٢١٨/١)، برقم (٤٤٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} يفسر الآية، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي: على الإيمان، ولكن اقتضت مشيئته -سبحانه وتعالى- أن يوجد بينهم الاختلاف في الأديان والمذاهب والأهواء، الاختلاف المذموم طبعاً، {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} فهؤلاء أمم الكفر على أهواء ومذاهب شتى، منهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البشر، وبعضهم يضلل بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، فهذا اختلاف أهل الأهواء، سواء كانوا من الأمم الأخرى، أو كان ذلك من المذاهب المنتسبة للإسلام، المذاهب الباطلة المنحرفة، الذين اختلفوا في الدين، فالله -عز وجل- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق، وقوله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، قال: "**أي: لا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم واعتقاداتهم**" أي الاختلاف.

قال الحافظ في قوله: {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}: "**أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين**"، فهؤلاء يكون الله -عز وجل- قد استثناهم من هؤلاء المختلفين، يعني: الناس أهواء شتى إلا من رحم الله -عز وجل- فليسوا كذلك، فهم على الإيمان والحق، وهذا المعنى هو أقرب المعاني، وقيل: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} يعني: من هؤلاء المختلفين، إلا من رحمه الله -عز وجل- فهداه، فانتشله وهداه من هؤلاء المختلفين، والأقرب هو الأول -والله أعلم-، لا يزال هؤلاء على هذا الاختلاف والشر والتفرق الذي ذمه الله -تبارك وتعالى- {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [سورة آل عمران(١٠٥)].

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة البقرة(٢١٣)] يعني يكون التقدير: كان الناس أمة واحدة على الإيمان فاختلفوا، وإن الذين استثناهم الله -عز وجل- هم الذين بقوا على الأصل على الإيمان وهم المرحومون، ومن عداهم فهؤلاء هم أهل الذم والتفرق والاختلاف، {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [سورة الأنعام(١٥٩)].

وهذا الحديث الذي ذكره الحافظ هو في معنى الآية {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، فهذه الفرقة الواحدة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست من المختلفين، هم الذين بقوا على الأصل منذ أن أنزل الله -عز وجل- آدم على التوحيد، قال: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق))[١٤]، وأولئك تفرقوا واختلفوا وخرجوا عن الصراط المستقيم، وهذه الفرق التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أي: الثنتان والسبعون فرقة، قال

---

١٤ - رواه أبو داود برقم (٤٢٥٢)، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، والترمذي برقم (٢٢٢٩)، وقال: وهذا حديث حسن صحيح، كتاب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الأئمة المضلين، وأحمد في المسند (٩٤/٢٨)، برقم (١٦٨٨١)، وقال محققوه: حديث صحيح، وبرقم (١٩٨٥١)، (٨٣/٣٣)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والحاكم في المستدرك (٥٩٣/٤)، برقم (٨٦٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٠)، وفي صحيح الجامع برقم (١٧٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عنها: ((كلها في النار))[١٥]، وليس المقصود أن هؤلاء خرجوا عن الإسلام بسبب تفرقهم واختلافهم وتشعب آرائهم ومذاهبهم، ولهذا فإن الثنتين والسبعين فرقة لا يحكم عليها أنها خالدة في النار، وإنما متوعدة بالنار، تُعذَّب ما شاء الله أن تعذب، وفيهم من يخرج من الإسلام، وفيهم من لا يخرج من الإسلام، لكن الحديث لا يدل على التخليد في النار، وأن هؤلاء قد خرجوا عن الإسلام قطعاً، ولهذا شيخ الإسلام والشاطبي وأهل العلم لما تكلموا على معناه، قالوا: هؤلاء ليس المقصود بأنهم في النار يعني يخلدون فيها، يعني الفرق التي ذكرها العلماء مثلاً، مثل الجهمية أو المعتزلة أو الطوائف الخوارج والشيعة وأمثال هؤلاء، فهم يتفاوتون غاية التفاوت، فمنهم من يخرج من الإسلام، ومنهم من لا يخرج، يعذب، وقد يغفر الله -عز وجل- له لسبب أو لآخر، قد يكون قلد غيره ولم يجد غير هذا، وهذا كان غاية ما أمكنه، فمات عليه، وقد يكون هذا الإنسان اجتهد وبذل وسعه في طلب الحق، وهذا غاية ما توصل إليه، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فالله -تبارك وتعالى- أرحم بعباده من أنفسهم، لكنهم مُتوعَّدون بالنار في الجملة، لكن هذا ما ينطبق على كل الأفراد الذين ينتسبون إليهم؛ لأنه لابد من تحقق الشروط وانتفاء الموانع، فالوعيد العام قد يتخلف لسبب.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في الأصل على قوله {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} -لأن المختصر لم يتطرق لها-: "**وقوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال الحسن البصري -في رواية عنه-: وللاختلاف خلقهم، وقال مكي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}، وقيل: للرحمة خلقهم، قال ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاوس: أن رجلين اختصما إليه فأكثرا، فقال طاوس: اختلفتما وأكثرتما، فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا، فقال طاوس: كذبت، فقال: أليس الله يقول: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}؟ قال: لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة، كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة، ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [سورة الذاريات(٥٦)]، وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال: الناس مختلفون على أديان شتى {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له: لذلك خلقهم قال: خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش، وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد**"[١٦].

هذا الكلام مهم جداً، وحذفه من هذا المختصر غفلة وسهو من المُختصِر.

---

١٥ - رواه ابن ماجه برقم (٣٩٩٣)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، وأحمد في المسند (٢٤١/١٩)، برقم (١٢٢٠٨)، وقال محققوه: حديث صحيح بشواهده، والحاكم في المستدرك (٢١٨/١)، برقم (٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٤٢).

١٦ - انظر: تفسير القرآن العظيم (٥٦٥/٢)، للحافظ ابن كثير، تحقق: محمود حسن، دار الفكر للنشر والتوزيع.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسم الإشارة في قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} على ماذا يعود؟ الله -عز وجل- قال: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، ثم قال: {إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، {وَلِذَلِكَ} واسم الإشارة "ذلك" للبعيد، فمن نظر إلى هذا المعنى قال: {وَلِذَلِكَ} البعيد هو الاختلاف {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}؛ لأن الله قال: {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} فاقتضت مشيئته وإرادته الكونية وقوع الخلاف بينهم، فلابد أن يقع، قال: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} فهو يبلوهم بهذا، ثم يجازيهم عليه، وتظهر معاني أسمائه وصفاته، فيعذب أقواماً ويرحم آخرين، فالشاهد أن هذا المعنى معنىً له وجه، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومن نظر إلى أن المذكور آخراً هو الرحمة، {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، قال: للرحمة خلقهم، وهذا -والله أعلم- دون الأول، وبعضهم قال: لمجموع الأمرين، للرحمة وللاختلاف، وهذا ليس بمستبعد باعتبار أن الله -عز وجل- قد اقتضت حكمته ومشيئته أن يوجد هذا وهذا، فرحمته لأهل الإيمان وأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وغضبه لغيرهم، {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} للاختلاف وللرحمة، والله أعلم.

وقوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره -لعلمه التام وحكمته النافذة- أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي: ثبتت كلمة ربك، والمقصود بكلمة الله -عز وجل- التي ثبتت مفسرَّة بما بعدها {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، قضى الله ذلك وقدّره فلابد من وقوعه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله -عز وجل- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قطْ قطْ، وعزتك))[١٧].

---

١٧ - رواه البخاري برقم (٧٠١١)، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [سورة الأعراف(٥٦)]، بدون زيادة: ((وعزتك))، ولفظه: ((اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، وقالت النار -يعني أوثرت بالمتكبرين-، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدا، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ثلاثا، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قطْ قطْ قطْ))، ورواه برقم (٤٥٦٩)، ولفظه: ((تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟، قال الله -تبارك وتعالى للجنة- أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول قطْ قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا))، كتاب التفسير، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [سورة ق(٣٠)]، ومسلم برقم (٢٨٤٦)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا الحديث باعتبار الغالب، أغلب أهل النار من الكبراء والمجرمين الكبار، وأهل الجنة من الضعفاء، وإلا فيوجد في الجنة من أئمة العدل، وليسوا من الضعفاء، ويوجد فيهم من قادة أهل الإيمان، ومن المجاهدين في سبيل الله، والنار يوجد فيها من سقط الناس ومن ضعفائهم، كما ذكر الله -عز وجل- حال الأتباع والمتبوعين ومحاجتهم في النار، فالكلام باعتبار الأغلب.

{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة هود(١٢٠)].

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما نثبت به فؤادك، أي: قلبك يا محمد؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} أي: هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وهو الصحيح، يعني في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

قوله: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} قال: "أي: **في هذه السورة**"، وهذا الذي عليه عامة المفسرين باعتبار أن اسم الإشارة "هذه" مؤنث وهو للقريب، فهذا من هاتين الجهتين يصدق على هذه السورة، وابن جرير -رحمه الله- اعتبر هذا القول ورجحه ولم يستجز مخالفته للإجماع، والإجماع عند ابن جرير يقصد به قول عامة المفسرين وأكثرهم، وهذا المعنى ليس محل إجماع؛ لأن من العلماء من قال: {وَجَاءكَ فِي هَذِهِ} يعني: آيات القرآن وسور القرآن، القرآن كله، وبعضهم يقول: {فِي هَذِهِ} أي: الدنيا جاءك الحق، والأول هو الأقرب، -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقول: في هذه الأنباء التي قصها الله -عز وجل- في القرآن، ولا تختص بهذه السورة.

{وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [سورة هود(١٢١-١٢٢)].

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: {اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ} أي: على طريقتكم ومنهجكم.

أو على تمكنكم وحالكم، معانٍ متقاربة.

{إِنَّا عَامِلُونَ} أي: **على طريقتنا ومنهجنا، {وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} أي: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [سورة الأنعام(١٣٥)]، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.**

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سورة هود(١٢٣)].

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

آخر تفسير سورة هود -عليه السلام- ولله الحمد والمنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com